منهج النقد الوضعي المنطقي عند زكي نجيب محمود

د. بلعربي محمد

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

شعبة الفلسفة

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

الجزائر

الاستلام	2018/10/7	المراجعة	2018/11/12	النشر	2018/12/31

الملخص:

يحاول النقد الوضعي أن يتناول الأدب من منظور علمي موضوعي مستعملا أدوات منهجية خاصة به لرصد الظاهرة الأدبية وتحليل لغتها وضبط دلالاتها، وفي هذا المقال عرض لمبادئ هذا المنهج النقدي الذي يحاول أن يسترشد بالعقل ويرتكز على التحليل الفلسفي للغة التي هي الشكل الخارجي الذي يتجلى فبه الأدب، وذلك من خلال أبرز ممثليه في الوطن العربي وهو الناقد زكي نجيب محمود.

الكلمات المفتاحية:

النقد، الأدب، الوضعية المنطقية.

The Logical Criticism Approach by Zaki Naguib Mahmoud

Dr. BelAraby Mohamed

Faculty of Human and Social Sciences

Université Abou Bekr Belkaid Tlemcen

Algeria

Received	7/10/2018	Revised	12/11/2018	Published	31/12/2018

Abstract:

This article aspires to expose a methodological approach in literary criticism, which is inspired by positive philosophy. This trend is scientific and objective by approaching the literary texts and this for a linguistic analysis excluding any external contextual factor.

Keywords:

Literary criticism, literature, objectivity, linguistic analysis.

"لا شيء يفلت من السؤال الفلسفي"[1] ومن ثم يصبح من حق الفلسفة أن تتناول الأدب موضوعا لتأملها، وتتخذه مادة لدراستها وتحليلها العقلي.

فهل تتحول الفلسفة إلى نقد عندما تتطاول على الأدب وتجعله مادة لتفكيرها، وحينئذ يصبح النقد ضربا من الفلسفة، مرتديا لباسها متسلحا بأسلحتها؟

ليس الأدب غريبا عن الفلسفة فمنذ القديم كانت بينهما صلات قربى، ووشائج قوية وعرى وثيقة، فما أكثر ما لبس الأدب رداء الفلسفة، وتسترت الفلسفة خلف الأدب متلونة بلونه. ثم إن الفلسفة نفسها لا تنكر أنها خرجت من رحم الأدب، أو لم تخرج الفلسفة اليونانية من بيت الميثولوجيا الإغريقية بعد مشقة وصراع ولم تتخلص بعد من شوائب الأسطورة؟ أو لم يكن برمنيدس يرى أن لغة الشعر هي التي يجب أن تخاطب بها الآلهة؟ بين الفلسفة والأدب علاقة قديمة، ولعل هذه العلاقة لم تكن لتشتد وتقوى بين علمين آخرين كما كانت بين الفلسفة والأدب، وقد ذهب "كارل يسبرس" إلى أن الشاعر إذا استطاع أن ينتج أفكارا أصبح فيلسوفا"[2] ولم يتردد "جون بول سارتر" في استعمال الأدب وسيلة لنشر فلسفته الوجودية نظرا لما في أسلوب الأدب من السهولة والوضوح يوفران للفكر الرواج والانتشار. ولا يخلو أدبنا العربي من هذا الجمع بين الفلسفة والأدب، فقد كان في شعر المتنبي خطرات فلسفية ناضجة، وتأملات في النفس والطبيعة البشرية، واستلهم منه أبو العلاء هذه النزعة التأملية التي عمّقها وبسطها في شعره فكان شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء.

غير أن مشكلا سرعان ما يواجهنا، ونحن في مدخل هذا المقال: بأي فلسفة يمكن للنقد أن يأخذ، وأيها يراه مناسبا لمعالجة النص الأدبي؟ أليس ثمة فلسفات مختلفة المناهج، متباينة الغايات؟ أليست الفلسفة نفسها تشكو هذا الاختلاف وتئن تحت وطأة هذا التباين الذي يفرق بين اتجاهاتها أكثر مما يوحدها؟ لعل اختلاف مناهج النقد واتجاهاته ليس سوى انعكاس لاختلاف فلسفاتها، و من ثم يكون الاختلاف سمة الفكر، سواء كان هذا الفكر نقدا يعالج النص الأدبي، أو كان فكرا موضوعه الإنسان في أبعاده التاريخية والاجتماعية والنفسية.

هل يمكن للنقد الأدبي أن يصبح علما مؤسسا على قواعد ثابتة ومبادئ تجري مجرى القوانين العلمية القائمة على التجريب؟ ليس من شك في أن للعقل دورا في إرساء الأحكام النقدية وتأسيس مبادئها، غير أن دعوة صريحة إلى أن يتشبه النقد بالعلم لم تصدر إلا عن مدرسة فلسفية تدعى "الوضعية المنطقية" تزعمها في العالم العربي المفكر الأديب المصري زكي نجيب محمود (1905_1993) الذي اعتنق فلسفتها وظل يدعو إلى إرساء دعائمها في الفكر العربي المعاصر في فلسفته وفي نقده الأدبي مؤلفا في سبيل ذلك مجموعة من الكتب، مبشرا في مقالات، نشرها هنا وهناك، بهذا المذهب الجديد الذي يدعو إلى فلسفة لغوية، إلى تحليل اللغة غير معترف إلا بما دل منها على واقع معين محسوس رافضا كل ما ضرب منها في ما وراء الطبيعة اللامحسوسة.

يعترف زكي نجيب محمود بوجود مناهج نقدية متعددة لدراسة الأدب ويذكر أن كل منهج ينفرد في دراسته بناحية من نواحي النص الأدبي، «على أنني بعد أن أقررت لشتى المذاهب النقدية بضرورة قيامها معها، متعاونة على الإحاطة بالعمل الأدبي من جميع نواحيه ملتمسة طريقها إلى صميم ذلك العمل في جوهره و لبابه واصلة بينه وبين كل ما يتصل به خارج حدوده من سيرة الكاتب ومجرى شعوره ولا شعوره، ومن ظروف اجتماعية {...} فإنني أود أن أخصص في الزاوية التي أتمنى لنفسي النظر منها كلما أردت دراسة لكتاب أدبي أو لقصيدة من قصائد الشعر {...} وأما هذه الزاوية أوثرها على سواها في العمل النقدي فهي تلك التي تعمد إلى تحليل النص نفسه تحليلا كاملا شاملا».[4]

فلا ضرر إذن تعددت مناهج النقد و اختلفت، و ذهب كل منهج في نقده مذهبا خاصا به، فدرس الأدب من الزاوية التي يريدها وكشف فيه عن الوجه الذي يريده، غير أن ثمة منهج هو الأولى بأن يُتبع، والأجدر بأن يسير النقد على مبادئه هو المنهج الوضعي المنطقي في رأي هذا المفكر.

تستند الوضعية المنطقية على منهج العلم القائم على الحس والتجريب ومبادئ العقل. ترفض الميتافيزيقا وعالم الغيب والفكر غير القابل للتطبيق على الواقع، وتطمح إلى نشر هذه المبادئ على العلوم الإنسانية وتعميمها على النقد الأدبي.

يقول زكي نجيب محمود «وسميت هذه الحركة الفلسفية المعاصرة بهذا الاسم لأن أنصارها وضعيون بمعنى أنهم كالعلماء يريدون للإنسان أن يقف بفكره عند الحدود التي يستطيع عندها أن يقيم عمله على تجاربه وخبرته، وأن يثبت صدق أقواله إثباتا يستند إلى الملاحظة الحسية»[5]. ومن السهولة أن نستنتج أن الفلسفة نفسها يجب عليها أن تتحول إلى علم.

أفرد زكي نجيب محمود للنقد الوضعي المنطقي فصلا كاملا في كتابه «قشور ولباب»، وكتب فيه فصولا اخرى مختصرة في كتابه «في فلسفة النقد» ويذهب إلى أن:

«النقد القائم على تحليل النص نفسه هو الطريقة الوحيدة بين سائر الطرق النقدية، التي تخلص لعملها ولهدفها إخلاصا يدعوها إلى البقاء على أرضها وفي ميدانها دون التطفل على ميادين أخرى»[6].

ويقترح ما سماه بالقراءتين في معالجة الأثر الأدبي: القراءة الأولى وهي قراءة التذوق، وتتلوها القراءة الثانية وهي القراءة التحليلية التي يؤسس فيها الناقد موقفه على التعليل العقلي مبررا أحكامه واستنتاجاته بحجة العقل «لأن كل تحليل وكل تعليل هو من العمليات العقلية الصرف»[7] وليس بالضرورة أن ينتهي العمل النقدي في رأيه إلى ضرب من التقويم أو التفضيل، فليس ذلك من غايات النقد ولا من أهدافه، فتفضيل هذا الأثر على ذلك، والحكم على هذا البيت بأنه أجود بيت في المدح أو في الرثاء ذلك من سمات النقد القديم المؤسس على المقارنة القائمة على مجرد الانطباع.

ولا يتردد زكي نجيب محمود في أن يُصرح بأنه صاحب فكرة القراءتين وأنه كان قد عرضها على الناقد الكبير "محمد مندور" فرفضها ولم يستسغها ثم عاد بعد مرور وقت طويل واستحسنها فنسبها الناس إليه «وقد أخذ الدكتور مندور بعد ذلك بأعوام كثير بفكرة القراءتين هذه، دون أن يذكر الذي أوحى إليه بها، ثم جاء الأنصار فحسبوها له»[8].

ويفسر زكي نجيب محمود القراءتين بقوله:

«... ذوق يختار ما يقرؤه ... عقل يعلل ويحلل، يفسر دون تدخل لعنصر التقويم من كراهية وحب بالذوق نُعد المادة الخامة التي نقدمها للنقد، وبالعقل الذي يحلل ويعلل نقوم بعملية النقد نفسها {...} وإنّ الناقد في تحليله ذلك أو تعليله ليستخدم كلما يستطيع استخدامه من علوم تتصل بعمله {...} بل إن الناقد ليستخدم العلوم الطبيعية الحديثة نفسها في عمله وأول ما يذكر في هذا الصدد استخدامه للمنهج التجريبي الذي نما ودق في مجال تلك العلوم ثم نذكر بعد ذلك نظريات علمية بعينها كانت بعيدة المدى في تأثيرها على الفكر المعاصر الذي يتجسد في الأعمال الأدبية كما يتجسد في سواها.»[9].

وليس من شك في كون زكي نجيب محمود متأثرا بالفلسفة الإنجليزية ومذاهبها الحسية التجريبية من جهة، و"بمدرسة النقد الجديد" NEW CRITICISIM الأمريكية التي أسسها "جون كرورانسوم JOHN CROWERANSOM

(1888_1974)، وصار كتابه «النقد الجديد» عنوانا لها من جهة أخرى[10]. فمن فلاسفة الإنجليز حذا حذو «الفريد وايتهد» (1861-1947). في دعوته إلى أن تكون الفلسفة كالعلم إذ لا فرق بين منهجيهما[11].

ومن مدرسة النقد الجديد استلهم منهج « كينيث بورك» KENNETH BERKE (1897-1986) الذي استخدم التحليل اللغوي في نقده لبعض الأعمال الأدبية، ووقف معجبا به متخذا إياه مثلا يُحتذى، يقول: «لقد درست لهذا الناقد "كنيت بيرك" دراسته النقدية لكتاب "جيمس جويس" (صورة فنان في شبابه) فوجدته خلال تلك الدراسة العجيبة التي تتركك ذاهلا داهشا من العلمية الدقيقة الأمينة الصابرة، وجدته في غضون الحديث يلقى إلى دراسة النقد بتعاليم ترسم له طريق النقد فيوصيه بأن تكون الخطوة الأولى عملية تصنيف الألفاظ الدالة على "أفعال" و"مواقف" و"أفكار" و"صور" وعلاقات" وبعد هذا التصنيف يستخرج أمثلة التضاد الواردة، .. يضاد بين الفن والدين، ثم يوصيه يلحظ بصفة خاصة كيف يبدأ الكاتب فقراته وكيف يختمها، ومتى يرد في كلامه وصل، ومتى يعمد إلى الفصل؟ ويوصيه أن يفتح عينيه على أسماء الأعلام وهل تدل على معاني معينة فوق كونها أسماء {...} ويوصيه أن يتنبه كلما وقع في الكتاب على حافز معين أو دافعا إلى سلوك[12].

وهكذا يبدو نقد "كينيت" مجموعة من الوصايا تنطلق من ألفاظ النص ومفرداته، من داخل النص لتدرك خارجها، وليس يمكن للنقد أن يأتي من خارج النص ليتجه إلى داخله. فحياة الكاتب الاجتماعية ودوافعه النفسية، وظروف النص الخارجية .. كل ذلك يجب أن يظل بعيدا عن دراسة النص وتحليل مكوناته اللغوية، لأنه وحدة عضوية متجانسة و كائن لغوي "يمثل بنية كلية متجانسة مستقلة عن الظروف والمؤثرات المحيطة."[13].

أما عندما يتعلق النقد بدراسة القصيدة الشعرية، فإن لهذه لغة خاصة بها، وبناءا يختلف عن بناء النثر. سواء كانت قصيدة عمودية أو من هذا الشعر الذي يتخلص من الوزن وقيده.

ولست هنا بحاجة إلى أن أبين موقف زكي نجيب محمود فقد كان له موقف أقرب إلى موقف العقاد منه، فيه الكثير من القسوة والتهجم على النمط الجديد للقصيدة، وقد احتدم بينه وبين الشعراء الجدد صراع ملأ الكثير من صفحات كتبه، وذهب للدفاع عن العقاد وشرح الكثير من شعره.

القصيدة بناء خاص تكونه البلاغة والإيقاع أو قُل هي الألفاظ في بلاغتها وانتظامها ودلالتها. وهي أيضا لا تفلت من دراسة المنهج الوضعي المنطقي الذي ينصب على تحليل ألفاظها وحروف هذه الألفاظ، وإحصائها لتحديد ما تحمله من دلالات. ويحاول زكي نجيب محمود أن يجتهد في البحث عن معالم هذه "العلمية" التي يجب أن يمتاز بها النقد الوضعي، ولا يجدها إلا في ظاهرة تكرار الحروف في القصيدة الشعرية، فكلما تكررت الحروف دلت على معاني واحدة ... فحرف الراء الذي يدل على خرير الماء، يدل عليه كلما تكرر، وحرف السين الدال على أصوات الحرب يدل عليها كلما تكرر ...[14].

وقس على ذلك بقية الحروف والدوال ولا يبتعد في نظرنا هذا المنهج عن منهج الإحصاء الذي يراه البعض ضروريا لتوفير العلمية في النقد الأدبي، بينما لا يعده البعض إلا منهجا مساعدا، وهو في أخير الأمر لا يفضي إلى نظرية بعينها. ويذهب عبد السلام المسدي إلى أن الإحصاء منهج يجب الاحتياط منه: «لئن كان للعملية الإحصائية فضل بارز في عقلنة المنهج النقدي فإن جملة من الاحتياطات الواعية قد تغافل عنها النقاد ... فتواتر ذكر الشيء قد يفيد تناسبا طرديا بينه وبين أهميته في توفير أدبية النص، ولكن تكرار الدال الواحد قد لا يعني بضرورة تكرار المدلول الواحد، كما أن المدلول الواحد قد يطّرد ذكره من خلال دوال مختلفة، وفي كل الحالات قد يصل حدا يبلغ معه درجة من التشبع بحيث تنقلب أهميته بعكس ما يظنه الناقد»[15].

فالإحصاء الذي قد يضمن شيئا من العلمية للنقد، يُفقد النص كثيرا من أصالته، ويذهب بجمالية القطعة الشعرية. أو بعبارة أخرى ينسف هذه الجمالية، سواء كانت القصيدة تقليدية أو من هذا الشعر الذي يدعوه "الغوذامي" «بالقصيدة الجمالية»[16].

ولست بالمبالغ إذا ذهبت إلى أن منهج النقد الوضعي قد بالغ في علمنة النقد بنزعته إلى فلسفة التحليل اللغوي، وبحثه عن "المحسوس" والواقعي كمعيار يوجه عملية النقد، ويؤطرها، وقد اعترف زكي نجيب محمود نفسه في بعض كتبه أنه انتقى نصوصا أدبية أخضعها لهذا المنهج غير أنه لم يصل إلى نتيجة مقنعة يمكن تعميمها كما تعمم قوانين العلم عندما يصدق اختبارها. «إنني حاولت هذه النظرة بالنسبة لطائفة من الأعمال الأدبية على سبيل التطبيق، ولكنني لم أوفق في ذلك»[17].

يمكن لي أن أضع موقف نجيب محمود في موضعه من حركة النهضة العربية المعاصرة عندما حمل في فكره مشروع تجديد الفكر العربي المعاصر مقتنعا بأن هذه النهضة لن تتم إلا بالأخذ بأسباب العلم ومناهجه، وأن النقد وغيرهم من العلوم الإنسانية عليها أن تنحو نحو العلم وتسير على هدى مبادئه.

على أن الإشارة تجدر إلى أن هذا المنهج لم يكن قد دعا وحده إلى تحليل ألفاظ النص الأدبي بعيدا عن سياقاته، فقد تشاركه هذه النزعة مناهج نقدية أخرى يمكن أن نعود بها إلى مناهج الشكلانيين الروس، ومناهج البنيويين، والسيميائيين، ومنهج النقد التداولي، وما إليها مما يهتم بشكل النص ولغته دون سواهما.

لا يمكن للنقد أن يصبح "علما" لاختلاف موضوعيهما. فكلما كان الإنسان وثقافته موضوعا للدراسة، ضعفت شروط الموضوعية في دراسته وتباينت مواقف الدارس من المدروس. ولئن حاولت بعض العلوم الإنسانية ان تتزيى بلباس العلم وسميت علوما، فإن الإبداع الأدبي يظل حالة وجدانية يصعب رصدها أثناء وقوعها، وظاهرة معقدة لا يأتيها النقد إلا من بعد ليقف على شكلها الظاهر الذي تجلت فيه. ليس ثمة نقد يرسم للأدب طريق الخلود، والأدب الناجح هو الذي نشأ بريئا من أثار النقد، ولا يكون النقد إلا شاهدا على نجاحه. وقد لا ينجح النقد في معرفة أسرار هذا النجاح:

يموت ردئ الشعر من قبل أهله و جيده يحيا وإن مات قائله

لقد اختلف النقاد في إدراك لغز "هاملت".

و ذهب "لانسون" (ناقد فرنسي) إلى «أننا لا نعرف قط كل العناصر التي تدخل في تركيب العبقرية»[18].

و لعل المتنبي – فيما أرى – كان قد أشار إلى شيء من هذا في قوله:

وكنت إذا يممت أرضا بعيدة سريت فكنت، السر والليل كاتمه

وقد يكون الحديث عن السر في العبقرية الأدبية بعيدا عن روح الموضوعية، بيد أنه لا ينفي أن يكون النقد عاجزا أحيانا عن تعليل نجاح هذا العمل الأدبي أو ذاك.

المراجع:

1. أوليفي غوبول: فلسفة التربية، ترجمة نهاد رضى، بيروت عويدات، ص5.
2. كارل يسبرس: عظمة الفلسفة، ترجمة عادل العوّا، بيروت عويدات، 1983، ص64.
3. الوضعية المنطقية تيار علمي فلسفي ظهر في أوروبا بداية القرن العشرين 1920 واتخذ من فينا مقرا له (حلقة فينا) دعا إلى الأخذ بروح العلوم ومناهجها خاصة الطبيعية والفيزياء والرياضيات وأنكر الإقرار بكل ما ليس محسوسا ولا يمكن إخضاعه للتجريب.
4. انظر محمد جوادي مغني: مذاهب فلسفة النقد، دار الشروق، بيروت، ط2، 1983، ص121-122.
5. زكي نجيب محمود، حياة الفكر في العالم الجديد، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1956، ص234.
6. في فلسفة النقد، ص122.
7. المرجع نفسه، ص116.
8. المرجع نفسه، ص117.
9. المرجع نفسه، ص117.
10. يوسف غليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور النشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 2010، ص49.
11. زكي نجيب محمود، من زاوية فلسفية، دار الشروق القاهرة، ط3، 1982، ص164.
12. في فلسفة النقد، ص124
13. مناهج النقد الأدبي، ص54.
14. زكي نجيب محمود، قشور ولباب، دار الشروق، القاهرة، 1981، ص78.
15. عبد السلام المسدي، قضية البنيوية، تونس، دار أمية، 1991، ص78.
16. عبد الله الغذامي، تشريح النص، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، ط2، 2006، ص58.
17. فلسفة النقد، ص122.
18. قشور ولباب، ص61.